آنذاك بالفوضى التي خلقها وجود المقاومة في ربوع المملكة الهاشمية.

ولبنان بدأ معاركه مع المقاومة الفلسطينية منذ ١٩٦٩، ووصلت اوجها في ١٩٧٥ حيث طرح حزب الكتائب اليميني والقوات المتحالفة معه شعار «تحرير لبنان من الغرباء». والمقصودون هم الفلسطينيون.

وسوريا، بدأت، بدورها، تقييد حرية المقاومة الفلسطينية في اراضيها منذ ١٩٦٩ بحجة وجوب التنسيق المسبق مع الجيش السوري. ثم لاحقتها الى لبنان في ١٩٧٦ بحجة انهاء «اقتتال الاخوة في لبنان». والواقع ان سوريا دخلت لبنان لضبط الورقة الفلسطينية في اطار الاستعداد للتوجه الى مؤتمر جنيف للسلام، بعد ان فشلت سوريا في اقامة وحدة (بالاكراه) مع منظمة التحرير الفلسطينية. ثم، وفي ١٩٨٣، دعمت سوريا انشقاقا داخل (فتح)، كبرى منظمات العمل الفدائي، ولما لم يؤد الانشقاق غرضه كشفت وجهها بطرد ياسر عرفات من دمشق، ثم حصاره مع مؤيديه في طرابلس واجباره على الخروج منها بحرا تحت حماية دولية.

اما اسرائيل، فقد مارست عدوانيتها اولا ضد الدول العربية التي أوت المقاومة الفلسطينية، او ساندتها. وبعد ان استنفذت ذلك الاسلوب الذي لم ينه المقاومة، وحين عجزت سوريا في لبنان عن ضبط المقاومة، لجأت اسرائيل الى حروبها المباشرة ضد الفلسطينيين. فكانت، عدا الغارات الانتقامية، حروب ١٩٧٨، ١٩٨١، ١٩٨٢، والاخيرة كانت اشرسها، اذ ان القرار السياسي الاسرائيلي قد اتخذ بانهاء منظمة التحرير الفلسطينية، عسكريا وسياسيا. وانتهت الحرب الاخيرة بخروج قوات المقاومة الفلسطينية من بيروت بحرا تحت حماية دولية.

ان الحروب الدفاعية التي خاضتها منظمة التحرير الفلسطينية على الجبهتين، العربية والاسرائيلية، تُرجمت، سياسيا، بتبنيها شعار «القرار الوطني الفلسطيني المستقل». والاطراف التي حاربتها، باستثناء لبنان، عملت اما على انهاء حركة التحرير الوطني الفلسطيني (كما فعلت اسرائيل)، او عملت على احتوائها (كما فعل الاردن تحت شعار وحدة الضفتين، بغض النظر عن الصيغ التي تمت تغطيته بها، وكذلك سوريا التي ارادت ان تجعل من هيمنتها على المنظمة ورقة تعزز موقع سوريا الاقليمي في الشرق الاوسط، في اطار التسوية مع اسرائيل من جهة، وفي اطار صراعها على زعامة المنطقة العربية من جهة ثانية).

وتجلت مأساة منظمة التحرير الفلسطينية في عدم وصولها الى مستوى خوض معارك هجومية، سياسية او عسكرية، سواء في مواجهة اسرائيل، او في مواجهة اشقائها العرب. فساد العرف السياسي الفلسطيني الذي تلخصه سياسة «اللعم» الفلسطينية. وبدا كأن منظمة التحرير الفلسطينية، والمنظمات السياسية الفلسطينية قد تخلت، بهذا، عن دعواها بانها طليعة ورافعة لحركة التحرر العربية، وقبلت ان تدرج نفسها في الاطار الرسمي العربي، ففقدت بذلك السلاح الاساسي الذي كان يمكن ان يشكل اداتها، حتى «لابتزاز» الانظمة العربية. وهذا ما جعلها في موقع الاضعف امام الانظمة، فاصبحت مجرد «رقم صعب»، وصار «الزمن العربي رديئا» بينما كانت تستطيع ان تكون قوة فاعلة، حيث سيكون الزمن العربي جيدا بفعل نشاط جماهيره.

عودة الى الجغرافيا

قلنا في بداية هذا المقال، ان جوهر مشكلة العمل الفلسطيني انه خارج ارضه. اليس هناك